المحاضرة الخامسة والعشرون

المرحلة الرابعة :التفسير في عصر التدوين (مرحلة التأصيل)

خطا التفسير خطوة اخرى ، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث، فلم يُفرد له تأليف خاص يُفسِّر القرآن سورة سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه، بل وُجد من العلماء مَن طوَّف في الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجوار ذلك ما رُوِي في الأمصار من تفسير منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧هـ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ، وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥هـ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١هـ، وآدم بن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠هـ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هـ وغيرهم، وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد

خطا التفسير خطوة اخرى ، انفصل بها عن الحديث، فأصبح علماً قائماً بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورُتِّب ذلك على حسب ترتب المصحف. وتم ذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠هـ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن. وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين

وكذلك ظهرت في مطلع القرن الرابع حركة تفسيرية كبرى بلغت حد النضج وبرزت تفاسير مستقلة قائمة بذاتها تناولت التفسير بالمأثور ،وتعرضت للاستشهاد بالشعر ،والاعراب ،وكذلك الاستنباط الفقهي ،وتوجيه الاقوال وترجيح بعضها على بعض ومن اشهر هذه التفاسير :

١- تفسير جامع البيان في تأويل أي القران لابن جرير الطبري (ت:٣١٠)

٢- تفسير التبيان في تفسير القران للشيخ احمد بن الحسن الطوسي (ت:٤٦٠)

٣- تفسير مجمع البيان للطبرسي (ت:٥٤٨)

٤- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل للزمخشري (ت:٥٣٨)

٥- تفسير مفاتيح الغيب او التفسير الكبير للرازي (٦٠٦)

٦- تفسير الجامع لأحكام القران للقرطبي (٦٧١)

هذه هي اجل التفاسير التي برزت في مرحلة التأصيل التي ابتدأت من القرن الرابع وحتى نهاية القرن السادس ،وكانت السمة البارزة على هذه التفاسير الجمع بين التفسير بالنقل والعقل ،يضاف الى ذلك تأثرها الى حد بعيد بثقافة المفسر ،وبهذا الخصوص قال الحاج خليفة (ت:١٠٦٧) معلقا على تأثر تلك التفاسير بثقافة المفسر والعلم الذي برع فيه "ثم صنف بعد ذلك: قوم برعوا في شيء من العلوم .ومنهم: من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن، واقتصر فيه على: ما تمهر هو فيه، كأن القرآن انزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء .فالنحوي: تراه ليس له هم إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه، وإن كانت بعيدة، وينقل قواعد النحو، ومسائله، وفروعه، وخلفياته: كالزجاج. والواحدي في: (البسيط) .وأبي حيان في: (البحر والنهر) .والإخباري: ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والأخبار عمن سلف، سواء كانت صحيحة أو باطلة .ومنهم :الثعلبي .والفقيه: يكاد يسرد فيه الفقه جميعا، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية، التي لا تعلق لها بالآية أصلا، والجواب عن أدلة المخالفين: كالقرطبي. وصاحب: (العلوم العقلية) .خصوصا: الإمام: فخر الدين الرازي. قد ملأ تفسيره: بأقوال الحكماء، والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضي الناظر العجب .قال أبو حيان في (البحر) : جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير. ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير. والمبتدع: ليس له قصد إلا تحريف الآيات، وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث أنه لو لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعا له فيه أدنى مجال سارع إليه. كما نقل عن البلقيني، أنه قال: استخرجت من (الكشاف) اعتزالا بالمناقيش، منها: أنه قال في قوله - سبحانه وتعالى -: (فمن زحزح عن النار، وأدخل الجنة فقد فاز) ، أي: فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية. والملحد: فلا تسأل عن كفره، وإلحاده في آيات الله - تعالى -، وافترائه على الله - تعالى - ما لم يقله. كقول بعضهم (إن هي إلا فتنتك) : ما على العباد أضر من ربهم. وينسب هذا القول إلى صاحب: (قوت القلوب) ، أبي طالب المكي. ومن ذلك القبيل: الذين يتكلمون في القرآن بلا سند، ولا نقل عن السلف، ولا رعاية للأصول الشرعية، والقواعد العربية.

كتفسير: محمود بن حمزة الكرماني. في مجلدين. سماه: (العجائب، والغرائب) .ضمنه: أقوالا، هي عجائب عند العوام، وغرائب عما عهد عن السلف، بل هي أقوال منكرة، لا يحل الاعتقاد عليها، ولا ذكرها، إلا للتحذير. من ذلك قول من قال في (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا) : إنه الحب والعشق

وهكذا فسَّر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه، وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت في بعض العصور رواجاً عظيماً، كما راجت في عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يُحَمِّلوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن. وفى الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يُخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه